

محمود درويش

لَمَّاذَا تَرَكْتَ
الْحَصَانَ
وَحِيداً

الطبعة الثالثة



دار النشر
2003

لما كنا تركت الهدان وديداً

الإهداء

الى ذكرى الغائبين

جدي : حسين

جدتي أمينة

وأبي سليم

وإلى الحاضرة : حورية , أمي.

القصائد

أرى شبحي قادما من بعيد

(I) أيقونات من بلور المكان

في يدي غيمة

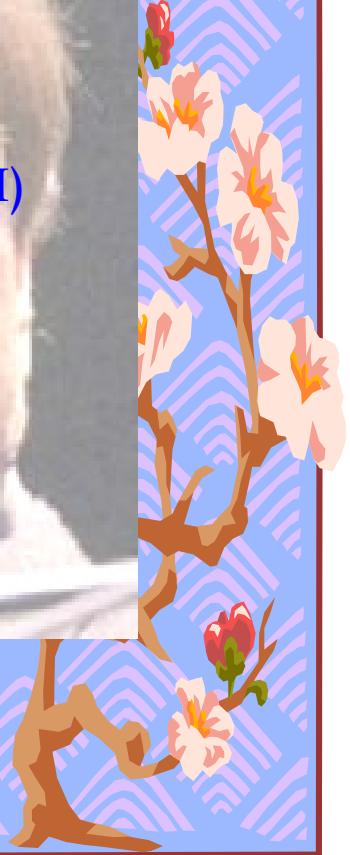
قرويون من غير سوء

ليلة اليوم

أبد الصبار

كم مرة ينتهي أمرنا

إلى آخري وآخره



(II) فضاء هاييل

عود اسماعيل

نزهة الغرباء

حبر الغراب

سنونو التتار

مر القطار

(III) فوضى على باب القيامة

البئر

كالنون في سورة الرحمن

تعاليم حورية

أمشاط عاجية

اطوار أنات

مصرع العنقاء

(IV) غرفة للكلام مع النفس

تدابير شعرية

من روميات أبي فراس الحمداني
من سماء إلى أختها يعبر الحالمون
قال المسافر للمسافر
قافية من أجل المعلقات
الدوري كما هو

(V) مطر فوق برج الكنيسة

هيلين يا له من مطر
ليل يفيض من الجسد
للغجرية سماء مدربة
تمارين أولى على جيتارة أسبانية
أيام الحب السبعة

(VI) أغلقوا المشهد

شهادة من برتولت بريخت أمام محكمة عسكرية
خلاف غير لغوي مع امرئ القيس
متتاليات لزمن آخر
عندما يبتعد

أرى شعبي قادماً من بعيد...

أُطلُّ كَشْرُفَةَ بَيْتٍ، عَلَى مَا أُرِيدُ
أُطلُّ عَلَى أَصْدِقَائِي وَهُمْ يَحْمِلُونَ بَرِيدَ
المساء: نَبِيذاً وَخَبِزاً،
وَبَعْضَ الرِّوَايَاتِ وَالْأَسْطُوانَاتِ...

أُطلُّ عَلَى نُورِسٍ، وَعَلَى شَاحِنَاتِ جُنُودِ
تُغَيِّرُ أَشْجَارَ هَذَا المِكانِ.

أُطلُّ عَلَى كَلْبٍ جَارِي المِهاجِرِ
مِنَ كِنْدَاءٍ، مَنذُ عامٍ وَنِصْفٍ...

أُطلُّ عَلَى إِسْمِ "أَبِي الطَّيِّبِ المِمتَنِّبِيِّ"،
المِساْفِرِ مَن طَبْرِيّاً إِلَى مِصرِ
فَوقِ حِصانِ النَشِيدِ

أُطلُّ عَلَى الوَرْدَةِ الفارِسيَّةِ تِصْعَدُ
فَوقِ سِياجِ الحَديدِ

أُطلُّ، كَشْرُفَةَ بَيْتٍ، عَلَى مَا أُرِيدُ

أُطلُّ عَلَى شَجرِ يَحْرُسُ اللَّيْلَ مَن نِفسِهِ
وَيَحْرُسُ نَومَ الَّذينَ يُحِبُّونَنِي مِيتاً...

أُطلُّ عَلَى الرِّيحِ تَبْحَثُ عَن وَطَنِ الرِّيحِ
فِي نِفسِها...

أُطلُّ عَلَى امْرَأَةٍ تَتَشَمَّسُ فِي نِفسِها...

أُطَلُّ على موكب الأنبياء القدامى
وهم يصعدون حُفَاةً إلى أُرْشَلِيم
وأَسْأَلُ: هل من نبيٍّ جَدِيدٍ
لهذا الزَمَانِ الجَدِيدِ

أُطَلُّ، كَشْرَفَةِ بَيْتِ، على ما أريد

أُطَلُّ على صورتي وهي تهرب من نفسها
إلى السَّلَمِ الحَجْرِيِّ، وتحمل منديلَ أُمِّي
وتخفق في الريح: ماذا سيحدث لو عدتُ
طفلاً؟ وعدتُ إِلَيْكَ... وعدتُ إِلَيَّ

أُطَلُّ على جذع زيتونة خبأتُ زكرياً
أُطَلُّ على المفردات التي انقرضت في "لسان العرب"

أُطَلُّ على الفُرسِ، والرومِ، والسومريين،
واللاجئينِ الجُدُدِ...

أُطَلُّ على عَقْدِ إحدى فقيراتِ طاغور
تطحنُهُ عرباتُ الأميرِ الوسيمِ...

أُطَلُّ على هُدُودِ مُجْهَدٍ من عتابِ الملكِ

أُطَلُّ على ما وراء الطبيعة:
ماذا سيحدث... ماذا سيحدث بعد الرماد؟

أُطَلُّ على جسدي خائفاً من بعيد...
أُطَلُّ كَشْرَفَةِ بَيْتِ، على ما أريد

أُطَلُّ على لغتي بعد يومين. يكفي غيابُ

قليلٌ ليفتح أسخيلُوسُ البابَ للسلامِ،

يكفي

خطابٌ قصيرٌ ليُشعل أنطونيو الحرب

يدُ امرأةٍ في يدي

كي أعانق حُرِّيَّتي

أن يبدأ المدُّ والجَزْرُ في جسدي من جديد

أُطلُّ، كشرفة بيتٍ، على ما أريد

أُطلُّ على شبحي

قادمًا

من

بعيد..

(I) أيقونات من بلور المكان

في يدي غيمة

أسرجوا الخيل،
لا يعرفون لماذا،
ولكنهم أسرجوا الخيل في السهل

...كان المكان مُعدًّا لمولده: تلةً
من رياحين أجداده تتلقتُ شرقاً وغرباً. وزيتونةً
قربَ زيتونةٍ في المصاحف تُعلي سَطُوحَ اللغة...
ودخاناً من اللازوردِ يُوثِّتُ هذا النهار لمسألةٍ
لا تخضُ سوى الله. آذارُ طفلي
الشهور المدلل. آذارُ يندفُ قطناً على شجر
اللوز. آذارُ يُولمُ خبيزةً لفناء الكنيسة.
آذارُ أرضٍ لليلِ السنونو، ولامرأةٍ
تستعدُّ لصرختها في البراري... وتمتدُّ في شجر السنديان!

يولدُ الآنَ طفلي،

وصرختُهُ،

في شقوق المكان

إفترقنا على درج البيت. كانوا يقولون:
في صرختي حذرٌ لا يلائمُ طيشَ النباتات،
في صرختي مطرٌ؛ هل أسأتُ إلى إخوتي
عندما قلتُ إنني رأيتُ ملائكةً يلعبون مع الذئب
في باحة الدار؟ لا أتذكرُ

أسماءهم. ولا أتذكرُ أيضاً طريقتَهُم في
الكلام... وفي خفة الطيران

أصدقائي يرفون ليلاً، ولا يتركون
خلفهم أثراً. هل أقولُ لأمي الحقيقة:
لي إخوة آخرونُ
إخوةٌ يَضَعُونَ على شرفتي قمراً
إخوةٌ ينسجون بإبرتهم معطفَ الأقرانِ

أسرجوا الخيل،
لا يعرفون لماذا،
ولكنهم أسرجوا الخيل في آخر الليل

...سَبَعُ سنابلٍ تكفي لمائدة الصيفِ.
سَبَعُ سنابلٍ بين يدي. وفي كل سُنْبُلَةٍ
يُنْبِتُ الحقلُ حقلًا من القمح. كان
أبي يَسْحَبُ الماءَ من بئرهِ ويقولُ
له: لا تجف. ويأخذني من يدي
لأرى كيف أكبرُ كالفَرَحِينَةِ...
واحدٌ في الأعلى

وآخرُ في الماءِ يسبحُ... لي قمرانُ

واتقين، كأسلافهم، من صوابِ
الشرائع... سَكُوا حديدَ السيوفِ
محارِيثَ. لن يُصْلِحَ السيفُ ما
أفسدَ الصيفُ - قالوا. وصلُّوا
طويلاً. وغنَّوا مدائحهم للطبيعة...
لكنهم أسرجوا الخيل،

كي يرقصوا رقصة الخيل،
في فضة الليل...

تجرحني غيمة في يدي : لا
أريد من الأرض أكثر من
هذه الأرض: رائحة الهال والقش
بين أبي والحصان.
في يدي غيمة جرحتي. ولكنني
لا أريد من الشمس أكثر
من حبة البرتقال وأكثر من
ذهبٍ سال من كلمات الأذان

أسرجوا الخيل،
لا يعرفون لماذا،
ولكنهم أسرجوا الخيل
في آخر الليل، وانتظروا
شبهضاً طالعاً من شقوق المكان...

قرويون، من خير سوء..

لم أكن بعدُ أعرف عاداتِ أُمِّي، ولا أهلها
عندما جاءت الشاحناتُ من البحر. لكنني
كُنْتُ أعرفُ رائحةَ التبغِ حولِ عباءةِ جدِّي
ورائحةَ القهوةِ الأبديةِ، منذُ وُلِدْتُ
كما يولّدُ الحيوانُ الأليفُ هنا
دفعَةً واحدةً!

نحنُ أيضاً لُنا صرخَةً في الهبوطِ إلى حافةِ
الأرضِ. لكننا لا نُخزِنُ أصواتنا
في الجرارِ العتيقةِ. لا نشنقُ الوَعْلَ
فوقِ الجدارِ، ولا ندَّعي ملكوتَ الغبارِ،
وأحلامنا لا تُطلُّ على عنبِ الآخرينِ،
ولا تكسرُ القاعدةَ!

لم يكن بعدُ لاسمي ريشٌ فأقفزُ أبعدَ
بعد الظهيرةِ. كانت حرارةُ أبريلٍ مثلَ
رباباتِ زوارنا العابرينِ تطيرنا كالحماماتِ.
لي جرسٌ أوَّلٌ: جاذبيةٌ أنثى تراوغني
لأشمَّ الحليبَ على ركبتيها، فأهربُ
من لسعةِ المائدةِ!

نحنُ أيضاً لُنا سرُّنا عندما تقع الشمسُ
عن شجرِ الحورِ: تخطفنا رغبةٌ في البكاءِ
على أحدِ ماتٍ من أجلِ لا شيءٍ ماتٍ،
وتجرفنا صَبوةً لزيارةِ بابلٍ أو جامعِ
في دمشقٍ، وتذرفنا دمعَةً من هديلِ
اليماماتِ في سيرةِ الوجدِ الخالدةِ!

قرويون، من غير سوء، ولا ندم
في الكلام. وأسماؤنا مثل أيامنا تتشابه،
أسماؤنا لا تدل علينا تماماً. ونندس
بين حديث الضيوف. لنا ما نقول عن
الأرض للأجنيبة حين تطرر مندليها ريشة
ريشة من فضاء عاصفينا العائدة!

لم تكن للمكان مسامير أقوى من الزنلخت
عندما جاءت الشاحنات من البحر. كنا
نهية وجة أبقارنا في حظائرنا، ورتب
أيامنا في خزائن من شغلنا اليدوي
ونخطب ود الحصان، ونومي
للنجمة الشاردة.

نحن أيضاً سعدنا إلى الشاحنات. يسامرنا
لمعان الزمرد في ليل زيتوننا، ونباح
كلاب على قمر عابر فوق برج الكنيسة،
لكننا لم نكن خائفين. لأن طفولتنا لم
تجى معنا. واكتفينا بأغنية: سوف نرجع
عمًا قليل إلى بيتنا... عندما تفرغ الشاحنات
حمولتها الزائدة!

ليلة البوه

هاهنا حاضر لا يلامسه الأمس
حين وصلنا إلى آخر الشجرات
انتبهنا إلى أننا لم نعد قادرين على الانتباه
وحين التفتنا إلى الشاحنات
رأينا الغياب يكسب أشياءه المنتقاة
وينصب خيمته الأبدية من حولنا

هاهنا حاضر لا يلامسه الأمس
ينسل من شجر التوت خيط الحرير
حروفا على دفتر الليل
لا شيء غير الفراش يضيء جسارتنا في النزول
إلى حفرة الكلمات الغريبة
هل كان هذا الشقي أبي ؟
ربما أتدبر أمري هنا
ربما ألد الآن نفسي بنفسي
وأختار لاسمي حروفا عمودية

هاهنا حاضر
جالس في خلاء الأواني يحدق
في أثر العابرين على قصب النهر
يصقل نياتهم بالهواء
لعل الكلام يشفُ فنبصر فيه النوافذ مفتوحة
ولعل الزمان يحث الخطى معنا
حاملا غدنا في حقائبه

هاهنا حاضر لا زمان له
لم يجد أحدٌ هاهنا أحداً يتذكر
كيف خرجنا من الباب ريحا وفي أي وقت وقعنا عن الأمس فانكسر
الأمس فوق البلاط شظايا يركبها الآخرون مرايا لصورتهم بعدنا.

هاهنا حاضر لا مكان له
ربما أتدبر أمري وأصرخ في ليلة اليوم :
هل كان ذلك الشقي أبي , كي يحمّلي عبء تاريخه ؟
ربما أتغير في اسمي وأختار ألفاظ أُمي وعاداتها مثلما ينبغي
أن تكون كأن تستطيع مداعبتي
كلما مسّ ملحٌ دمي
وكان تستطيع معالجاتي كلما عضني بلبلٌ في فمي!

هاهنا حاضرٌ عابر
هاهنا علق الغرباء بنادقهم فوق أغصان زيتونة
وأعدوا عشاءً سريعا
من العلب المعدنية
وانطلقوا مسرعين إلى الشاحنات.

أَبْدُ الصَّبَارِ

إلى أين تأخذني يا أبي؟
إلى جهةِ الرِّيحِ يا ولدي...

...وهما يخرجان من السهل، حيثُ
أقام جنودُ بونايرت تلاً لرصدِ
الظلال على سور عكا القديم
يقول أبٌ لابنه: لا تخف. لا
تخف من ازير الرصاص! إلتصق
بالتراب لتتجو! سننجو ونعلو على
جبل في الشمال، ونرجع حين
يعود الجنود إلى أهلهم في البعيد

-ومن يسكن البيت من بعدنا
يا أبي؟
-سيبقى على حاله مثلما كان
يا ولدي!

تحسّس مفتاحه مثلما يتحسّس
أعضاءه، واطمأنّ. وقال له
وهما يعبران سياجاً من الشوك:
يا ابني تذكر! هنا صلب الإنجليز
اباك على شوك صبارة ليلتين،
ولم يعترف أبداً. سوف تكبر يا
ابني، وتروي لمن يرثون بنادقهم

سيرة الدم فوق الحديد...

-لماذا تركت الحصان وحيداً؟
-لكي يؤنس البيت، يا ولدي،
فاليوتُ تموتُ إذا غاب سُكانها...

تفتح الأبدية أبوابها، من بعيد،
لسيارة الليل. تعوي ذئاب
البراري على قمرٍ خائف، ويقول
أبُّ لابنه: كُن قوياً كجدك!
واصعد معي تلة السنديان الأخيرة
يا ابني، تذكر: هنا وقع الإنكشاريُّ
عن بغلة الحرب، فاصمُدْ معي
لنعود

-متى يا أبي؟
-غداً. ربما بعد يومين يا ابني!

وكان غدُّ طائشٌ يمضغ الرياح
خلفهما في ليالي الشتاء الطويلة.
وكان جنودٌ يُهوشعُ بن نون بينون
قلعتهم من حجارة بيتهما. وهما
يلهثان على درب "قانا": هنا
مرَّ سيِّدنا ذات يوم. هنا
جعل الماء خمراً. وقال كلاماً
كثيراً عن الحب، يا ابني تذكر
غداً. وتذكر قلاعاً صليبيةً
قدمتها حشائش نيسان بعد
رحيل الجنود...

كم مرة ينتهي أمرنا

يتأمل أيامه في دخان السجائر

ينظر في ساعة الجيب:

لو أستطيع لأبطأت دقائقها

كي أؤخر نضج الشعير!

ويخرج من ذاته مرهقا نزقا:

جاء وقت الحصاد

السنابل متقلة والمناجل مهملةً والبلاد تبعد الآن عن بابها النبوي.

يحدثني صيف لبنان عن عني في الجنوب

يحدثني صيف لبنان عما وراء الطبيعة

لكن دربي إلى الله يبدأ من نجمة في الجنوب.

هل تكلمني يا أبي ؟

عقدوا هدنة في جزيرة رودس

يا ابني

وما شأننا نحن , ما شأننا يا أبي ؟

وانتهى الأمر

كم مرة ينتهي أمرنا يا أبي

انتهى الأمر . قاموا بواجبهم:

حاربوا ببنادق مكسورة طائرات العدو

وقمنا بواجبنا وابتعدنا عن الزنزلخت

لئلا نحرك قبعة القائد العسكري

وبعنا خواتم زوجاتنا ليصيّدوا العصافير يا ولدي!

هل سنبقى إذا , ههنا يا أبي

تحت صفصافة الريح

بين السموات والبحر ؟

يا ولدي ! كل شيء هنا
سوف يشبه شيئاً هناك
سنشبه أنفسنا في الليالي
ستحرقنا نجمة الشبه السرمدية
يا ولدي!.

يا أبي , خفف القول عني
تركت النوافذ مفتوحة لهديل الحمام
تركت على حافة البئر وجهي تركت الكلام
على حبله فوق حبل الخزانة
يحكي , تركت الظلام
على ليله يتدثر صوف انتظاري
تركت الغمام

على شجر التين ينشر سرواله
وتركت المنام
يجدد في ذاته ذاته
وتركت السلام
وحيدا , هناك على الأرض
هل كنت تحلم في يقظتي يا أبي ؟
قم , سنرجع يا ولدي

إلى آخره
وإلى آخره...

-هل تعبتَ من المشي
يا ولدي، هل تعبت؟
-نعم، يا أبي
طال ليلك في الدرب،
والقلب سال على أرض ليلك
-ما زلتَ في خِفة القَطِّ
فاصعد إلى كتفي،
سنقطع عما قليل
غابة البطم والسنديان الأخيرة
هذا شمال الجليل
ولبنان من خلفنا،
والسماء لنا كلها من دمشق
إلى سور عكا الجميل
-ثم ماذا؟
-نعود إلى البيت
هل تعرف الدرب يا ابني
-نعم، يا أبي:
شرق خروبة الشارع العام
درباً صغيراً يضيقُ بصباره
في البداية، ثم يسير إلى البئر
أوسع أوسع، ثم يُطلُّ
على كرم عمي "جميل"
بائع التبغ والحلويات،

ثم يضيع على بيدر قبل
أن يستقيم ويجلس في البيت،
في شكل ببغاء،
-هل تعرف البيت، يا ولدي
-مثلما أعرف الدرب أعرفه:
ياسمينٌ يطوّقُ بوابةً من حديد
ودعسات ضوءٍ على الدرج الحجري
وعباد شمسٍ يُحدّقُ في ما وراء المكان
ونحلٌّ أليفٌ يُعدُّ الفطور لجدي
على طبق الخيزران،
وفي باحة البيت بئرٌ وصفصافةٌ وحصان
وخلف السياج غدٌ يتصفّحُ أوراقنا...

-يا أبي، هل تعبت
أرى عرقاً في عيونك؟
-يا ابني تعبتُ... أتحمّلي؟
-مثلما كنتَ تحمّلي يا أبي،
وسأحمل هذا الحنين
إلى
أولي وإلى أوله
وسأقطع هذا الطريق إلى
آخري... وإلى آخره!

(II) فضاء هابيل

عودُ إسماعيل

فرسٌ على وترين ترقص - هكذا
تُصغي أصابعه إلى دمه، وتنتشر القرى
كشقائق النعمان في الإيقاع .لا
ليلٌ هناك ولا نهارٌ . مسنًا
طربٌ سماويٌّ، وهرولت الجهات إلى
الهبولي
هَلُّويا،
هَلُّويا،

كلُّ شيءٍ سوف يبدأ من جديد
هو صاحب العود القديم، وجارنا
في غابة البلوط. يحمل وقته متخفياً
في زيٍّ مجنونٍ يُغني. كانت الحرب انتهت
ورماد قرينتنا اختفى بسحابةٍ سوداء لم
يُولد عليها طائرُ الفينيق بعد، كما
توقعنا، ولم تنشف دماء الليل في
قمصان موتانا. ولم تطلع نباتاتٌ، كما
يتوقع النسيان، في حُود الجنود
هَلُّويا،
هَلُّويا،

كل شيءٍ سوف يبدأ من جديد

كبقية الصحراء، ينحسر الفضاء عن الزمان
مسافةً تكفي لتنفجر القصيدة. كما اسماعيل
يهبط بيننا، ليلاً، وينشد: يا غريب،

أنا الغريب، وأنت مني يا غريب! فترحل
الصحراء في الكلمات. والكلمات تُهمل قوّة
الأشياء: عُد يا عود... بالمفقود وانبحني
عليه، من البعيد إلى البعيد
هَلُّويا
هَلُّويا،

كل شيءٍ سوف يبدأ من جديد

يتحرك المعنى بنا... فنطير من سفح إلى
سفح رخاميّ. ونركض بين هاويتين زرقاوين.
لا أحلامنا تصحو، ولا حرس المكان
يغادرون فضاء إسماعيل. لا أرضٌ هناك
ولا سماء. مستأ طربٌ جماعيٌّ أمام
البرزخ المصنوع من وترين. إسماعيل... غنّ
لنا ليصبح كل شيءٍ ممكناً قرب الوجود

هَلُّويا

هَلُّويا،

كل شيءٍ سوف يبدأ من جديد

نزهة الغرباء

أعرف البيت من خصلة المريمية . أولى النوافذ
تجنح نحو الفراشات ... زرقاء حمراء
أعرف خط السحاب وفي أي بئر سينتظر القرويات في الصيف
أعرف ماذا تقول الحمامة حين تبيض على فوهة البندقية
أعرف من يفتح الباب للياسمينه
وهي تفتح أحلامنا لضيوف المساء
لم تصل بعد مركبة الغرباء

لم يصل أحدٌ فاتركيني هناك كما تتركين التحية في مدخل البيت
لي أو لغيري
ولا تحفلين بمن سوف يسمعها أولاً
واتركيني هناك كلاماً لنفسي:
هل كنت وحدي " وحيدا كما الروح في جسدٍ ؟"
عندما قلت يوماً : أحبكما , أنت والماء
فالتعم الماء في كل شيء
كجيتارة تركت نفسها للبيكاه
لم تصل بعد جيتارة الغرباء

فلنكن طبيين ! خذيني إلى البحر
عند الغروب , لأسمع ماذا يقول لك البحر
حين يعود إلى نفسه هادئاً هادئاً
لن أغير ما بي
سأندس في موجةٍ وأقول:
خذيني إلى البحر ثانية
هكذا يفعل الخائفون بأنفسهم : يذهبون إلى البحر

حين تعذبهم نجمة أحرقت نفسها في السماء.

لم تصل بعد أغنية الغرباء

أعرف البيت من خفقان المناديل

أولى الحمامات تبكي على كتفي

وتحت سماء الأناجيل يركض طفل بلا سبب

يركض الماء والسرو يركض والريح تركض في الريح

والأرض تركض في نفسها

قلت : لا تسرع في الخروج من البيت ... لا شيء يمنع هذا المكان

من الانتظار قليلا هنا

ريثما ترتدين قميص النهار وتنتعلين حذاء الهواء

لم تصل بعد أسطورة الغرباء

لم يصل أحدٌ فاتركيني هناك كما تتركين الخرافة في أي شخص يراك

فيبكي ويركض في نفسه خائفا من سعادته:

كم أحبك , كم أنت أنت!

ومن روحه خائفا: لا أنا الآن إلا هي الآن في.

ولا هي إلا أنا في هشاشتها

كم أخاف على حلمي أن يرى حلما غيرها في نهاية هذا الغناء..

لم يصل أحدٌ

ربما أخطأ الغرباء الطريق

إلى نزهة الغرباء!.

حُبُّ الغرابِ

لكِ خلوةٌ في وحشةِ الخروبِ، يا
جرس الغروبِ الداكنِ الأصواتِ! ماذا
يطلبون الآن منك؟ بحثتَ في
بستانِ آدمَ، كي يوارى قاتلُ ضَجْرٍ أخاهُ،
وانغلقتَ على سوادك
عندما انفتح القَتيلُ على مده،
وانصرفتَ إلى شؤونك مثلما انصرف الغياب
إلى مشاغله الكثيرة. فلتكن
يقظاً. قيامتنا سترجأ يا غراب!
لا ليل يكفيننا لنحلم مرتين. هناك بابٌ
واحد لسمائنا. من أين تأتينا النهاية؟
نحن أحفاد البداية. لا نرى
غير البداية، فاتحد بمهب ليلك كاهناً
يعظ الفراغ بما يخلفه الفراغ الأدمي
من الصدى الأبدي حولك...
أنت متهمٌ بما فينا. وهذا أول
الدم من سلالتنا أمامك، فابتعد
عن دار قابيل الجديدة
مثلما ابتعد السراب
عن حبر ريشك يا غراب

ليَ خلوةٌ في ليل صوتك... لي غياب
راكضٌ بين الظلال يشدني
فأشدُّ قرن الثور. كان الغيب يدفعني أدفعهُ

ويرفعني وأرفعه إلى الشبح المعلق مثل
بازنجانة نضجت. أنت إذا؟ فماذا
يطلبون الين منا بعدما سرقوا كلامي من
كلامك، ثم ناموا في منامي واقفين
على الرماح. ولم اكن شبحاً لكي يمشوا
خطاي بعد خطاي. فكن أخي الثاني،
أنا هابيل، يُرجعني التراب
إليك خروّباً لتجلس فوق غصني يا غراب

أنا أنت في الكلمات. يجمعنا كتاب
واحد. لي ما عليك من الرماد، ولم
نكن في الظل غلا شاهدين ضحيّتين

قصيدتين

قصيرتين

عن الطبيعة، ريثما يُنهي وليمته الخراب

ويضيئك القرآن:

(فبعث الله غراباً يبحث في الأرض

ليُرِيه كيف يواري سوءة أخيه، قال:

يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب)

ويضيئك القرآن،

فابحث عن قيامتنا، وحلّق يا غراب!

سنونو التتار

على قدر خيلي تكون السماء .حلمتُ
بما سوف يحدث بعد الظهرية. كان التتار
يسيرون تحتي وتحت السماء، ولا يحملون
بشيء وراء الخيام التي نصبوها. ولا يعرفون
مصائر ما عرنا في مهبّ الشتاء القريب.
على قدر خيلي يكون المساء. وكان التتار
يدُسُّون أسماءهم في سقوف القرى كالسنونو،
وكانوا ينامون بين سنابلنا آمنين،
ولا يحلمون بما سوف يحدث بعد الظهرية، حين
تعود السماء، رويداً رويداً،
إلى أهلها في المساء

لنا حلمٌ واحدٌ: أن يمرّ الهواء
صديقاً، وينشر رائحة القهوة العربية
فوق التلال المحيطة بالصيف والغرباء...

أنا حلمي. كلما ضاقت الأرض وسعتها
بجناح سنونوة واتسعت. أنا حلمي...
في الزحام امتلأت بمرآة نفسي وأسئلتني
عن كواكب تمشي على قدمي من أحب
وفي عزلتي طرقت للحجيج إلى أورشليم -
الكلام المنتف كالريش فوق الحجارة،
كم من نبيّ تريد المدينة كي تحفظ اسم
أبيها وتندم: "من غير حرب سقطتُ؟"
وكم من سماء تُبدّل، في كل شعب،
ليعجبها شالها القرمزي؟ فيا حلمي...

لا تحدّق بنا هكذا!
لا تكن آخر الشهداء!

أخاف على حلمي من وضوح الفراشة
ومن بقع التوت فوق سهيل الحصان
أخاف عليه من الأب والإبن والعابرين
على ساحل الأبيض المتوسط بحثاً عن الآلهة
وعن ذهب السابقين،
أخاف على حلمي من يديّ
ومن نجمة واقفة
على كتفي في انتظار الغناء

لنا، نحن أهل الليالي القديمة، عاداتنا
في الصعود إلى قمر القافية
نُصدّق أحلامنا ونُكذّب أيامنا،
فأيامنا لم تكن كلها معنا منذ جاء التتار
وها هم يعدون أنفسهم للرحيل
وينسون أيامنا خلفهم، وسنهبط عما قليل
إلى عمرنا في الحقول. ونصنع أعلامنا
من شرشف بيضاء، إن كان لا بد
من علم، فليكن هكذا عارياً
من رموز تجعده... ولنكن هاديين
لئلا ننطير أحلامنا خلف قافلة الغرباء

لنا حلم واحد: أن نجد
حلماً كان يحملنا

مثلاً تحمل النجمة الميتين!

مرّ القطار

مرّ القطار سريعاً،
كنت أنتظر
على الرصيف قطاراً مرّاً،
وانصرف المسافرون إلى
أيامهم... وأنا
ما زلت أنتظر

تبكي الكمنجات عن بُعد،
فتحملني
سحابة من نواحيها
وتتكسر

كان الحنين إلى أشياء غامضة
ينأى ويدنو،
فلا النسيان يُقصيني،
ولا التذكر يدنيني،
من امرأة
إن مسّها قمرٌ
صاحت: أنا القمرُ

مرّ القطار سريعاً،
لم يكن زمني
على الرصيف معي،
فالساعة اختلفت
ما الساعة الآن؟
ما اليوم الذي حدثت

فيه القطيعة بين الأمس والغد
لما هاجر الغجر؟

هنا ولدت ولم أولد
سيُكمل ميلادي الحرُون إذاً
هذا القطار

ويمشي حولي الشجر

هنا وُجدتُ ولم أوجد
سأعثر في هذا القطار
على نفسي التي امتلأت
بضفتين لنهرٍ مات بينهما
كما يموت الفتى
"ليت الفتى حجرٌ" ...

مرّ القطار سريعاً
مرّ بي، وأنا
مثل المحطة، لا أدري
أودع أم أستقبل الناس:
أهلاً، فوق أرصفتي

مقهى،

مكاتب،

وردٌ

هاتف،

صحفٌ

وسندويشات،

وموسيقى،

وقافيةٌ

لشاعرٍ آخرٍ يأتي وينتظر

مرّ القطار سريعاً

مرّ بي، وأنا

ما زلتُ أنتظرُ

(III) فوضى على باب القيامة

البئر

أختار يوماً غائماً لأمر بالبئر القديمة

ربما امتلأت سماءً

ربما فاضت عن المعنى وعن

أمثلة الراعي.

سأشرب حفنة من مائها.

وأقول للموتى حواليتها : سلاما , أيها الباقرن

حول البئر في ماء الفراشة!

أرفع الطيئون عن حجرٍ : سلاما أيها الحجر الصغير

لعلنا كنا جناحي طائرٍ ما زال يوجعنا .سلاما

أيها القمر المحلق حول صورته التي لن يلتقي أبداً بها!

وأقول للسرو : انتبه مما يقول

لك الغبار لعلنا كنا هنا وترى كمان في وليمة حارسات اللازورد

لعلنا كنا ذراعي عاشقٍ

قد كنت أمشي حذو نفسي : كن قويا يا قريبي

وارفع الماضي كقرني ماعزٍ بيديك

واجلس قرب بئرِكَ

ربما التفتت إليك أيائل الوادي

ولاح الصوت صوتك صورةً حجريةً للحاضر المكسور..

لم أكمل زيارتي القصيرة بعد للنسيان

لم آخذ معي أدوات قلبي كلها :

جرسي على ريح الصنوبر

سُلّمي قرب السماء

كواكبي حول السطوح

وبحثي من لسعة الملح القديم

وقلت للذكرى :سلاما يا كلام الجدة العفوي

ياخذنا إلى أيامنا البيضاء تحت نعاسها

واسمي يرن كليرة الذهب القديمة عند باب البئر

أسمع وحشة الأسلاف بين الميم والواو السحيقة

مثل وادٍ غير ذي زرع .وأخفي تعبي الوادي

أعرف أنني سأعود حيا

بعد ساعات

من البئر التي لم القَ فيها يوسفًا أو خوف إخوته من الأصدقاء.

كن حذرا!

هنا وضعتك أمك قرب باب البئر

وانصرفت إلى تعويذةٍ فاصنع بنفسك ما تشاء

صنعت وحدي ما أشاء :

كبرت ليلا في الحكاية بين أضلاع المثلث :

مصر , سوريا , وبابل

ههنا وحدي كبرت بلا إلهات الزراعة

كُنَّ يغسلن بالندى ورأيت أنني قد سقطتُ عليّ من سفر القوافل

قرب أفعى
لم أجد أحداً لأكمّله سوى شبي
رمتني الأرض خارج أرضها
واسمي يرن على خطاي
كحدوة الفرس : اقترب ... لأعود من هذا
الفراغ إليك يا جلجامش الأبدى في اسمك.
كن أخي ! واذهب معي لنصيح بالبنر القديمة
ربما امتلأت كأنثى بالسماء
وربما فاضت عن المعنى وعمّا سوف يحدث في انتظار ولادتي من بئري الأولى!
سنشرب حفنة من مائها ,
سنقول للموتى حواليتها : سلاما
أيها الأحياء في ماء الفرائش ,
وأيها الموتى سلاما. !

حالنون في سورة الرحمن

في غابة الزيتون، شرق
الينابيع انطوى جدي على ظله
المهجور. لم ينبت على ظله
عُشبٌ خرافيٌّ
ولا غيمة الليلك
سالت داخل المشهد
الأرض مثل الثوب منسوجة
بإبرة السّماق في حلمه
المكسور... جدي هبّ من نومه
كي يجمع الأعشاب من كرمه
المطمور تحت الشارع الأسود...

علمني القرآن في دوحة الريحان

شرق البئر،

من آدم جئنا ومن حواء

في جنة النسيان.

يا جدي! أنا آخر الأحياء

في الصحراء، فلنصعد!

البحر والصحراء حول اسمه

العاري من الحراس

لم يعرفا جدي لا أبناءه

الواقفين الآن حول "النون"

في سورة "الرحمن"،

اللهم...فلتشهد!

أما هو المولود من نفسه

الموؤد، قرب النار،

في نفسه،

فليمنح العنقاء من سره

المحروق ما تحتاجه بعده

كي تشعل الأضواء في المعبد

في غابة الزيتون، شرق الينابيع

انطوى جدي على ظله

المهجور. لم تُشرق على ظله

شمسٌ. ولم يهبط على ظله

ظلُّ،

وجدي دائماً، أبعد...

تعاليم حورية

فكرت يوماً بالرحيل، فحطّ حسونٌ على
يدها ونام. وكان يكفي أن اداعب غصنَ
داليةٍ على حجل... لتدرك أن كأس نبيذي
امتألت. ويكفي أن أنام مبكراً لتزى
منامي واضحاً، فتطيل ليلتها لتحرسه...
ويكفي أن تجيء رسالة مني لتعرف أن
عنواني تغير، فوق قارعة السجون، وأن
أيامي تحوم حولها... وحيالها
أمي تعدّ أصابعي العشرين عن بعد.
تمشطني بخصلة شعرها الذهبي. تبحث
في ثيابي الداخلية عن نساء أجنبيات،
وترفو جوربي المقطوع. لم أكبر على يدها
كما شئنا: أنا وهي، افترقنا عند منحدرِ
الرّخام... ولوحت سحبٌ لنا، ولما عز
يرث المكان. وأنشأ المنفى لنا لغتين:
دراجة... ليفهمها الحمام ويحفظ الذكرى
وفُصحى... كي أفسر للظلال ظلالها!
ما زلت حياً في خضمك. لم تقولي ما
تقول الأم للولد المريض. مرّضت من قمر
النحاس على خيام البدو. هل تتذكرين
طريق هجرتنا إلى لبنان، حيث نسييتي
ونسييت كيس الخبز (كان الخبز قمحياً)
ولم أصرخ لئلا أوقظ الحراس. حطّتي

على كتفك رائحة الندى. يا ظبيةً فقدت
هناك كناسها وغزالها...

لا وقت حولك للكلام العاطفي.
عجنت بالحبق الظهيرة كلها. وخبزت للسماق
عُرفَ الديك. أعرف ما يُخرّب قلبك المتقوب
بالبطاووس، منذ طُردت ثانيةً من الفردوس.
عالمنا تغير كله، فتغيرت أصواتنا. حتى
التحية بيننا وقعت كزرّ الثوب فوق الرمل،
لم تسمعِ صدىً. قلبي: صباح الخير!
قلبي أيّ شيء لي لتمنحني الحياة دلالتها.

هي أختُ هاجر. أختها من أمها. تبكي
مع النايات موتى لم يموتوا. لا مقابر حول
خيمتها لتعرف كيف تفتح السماء، ولا
ترى الصحراء خلف أصابعي لترى حديقتها
على وجه السراب، فيركض الزمن القديم
بها إلى عبثٍ ضروريّ: أبوها طار مثل
الشركسيّ على حسان العرس. أما أمها
فقد أعدت، دون أن تبكي، لزوجة زوجها
حناءها، وتفحصت خلخالها...

لا نلتقي إلا وداعاً عند مفترق الحديث.
تقول لي مثلاً: تزوج أيتها امرأة من
الغرباء، أجمل من بنات الحي، لكن، لا
تُصدّق أيتها امرأة سواي. ولا تصدّق
ذكرياتك دائماً. لا تحترق لتضيء أمك،
تلك مهنتها الجميلة. لا تحنّ إلى مواعيد

الندى .كنْ واقعيًا كالسمااء . ولا تحنّ
إلى عباءة جدّك السوداء، أو رشوات
جدّتك الكثيرة وانطلق كالمهر في الدنيا.
وكنْ مَنْ أَنْتِ حيث تكون. واحمل
عبءَ قلبك وَحدهُ... وارجع إذا
اتّسعت بلادك للبلاد وغيّرت أحوالها...

أمي تضيء نجوم كنعان الأخيرة،
حول مرآتي،
وترمي، في قصيدتي الأخيرة، شالها!

أمشاط ماجية

من القلعة انحدر الغيم أزرق
نحو الأزقة...
شال الحرير يطير
وسرب الحمام يطير
وفي بركة الماء تمشي السماء قليلاً
على وجهها وتطير
وروحى تطير، كعامله النحل، بين الأزقة
والبحر يأكل من خبزها، خبز عكا
ويفرك خاتمها منذ خمسة آلاف عام
ويرمي على خذها خذ
في طقوس الزفاف الطويل الطويل

تقول القصيدة:

فلنتنظر

ريثما تسقط النافذة

فوق "ألبوم" هذا الدليل السياحي

أدخل من إبطها الحجري، كما

يدخل الموج في الأبدية. أعبُر

بين العصور كأني أعبُر بين الغرف

أرى في محتويات الزمان الأليفة:

مرآة بنت لکنعان،

أمشاط شعر من العاج،

صحن الحساء الآشوري،

سيف المَدافع عن نوم سيِّده الفارسيّ،
وقفز الصقور المفاجيء من علم نحو آخر
فوق صواري الأساطيل...

لو كان لي حاضرٌ آخر
لامتلكت مفاتيح أمسي
ولو كان أمسي معي
لامتلكت غدي كله...

غامضٌ سفري في الزقاق الطويل
المؤدي إلى قمرٍ غامضٍ فوق سوق
النحاس. هنا نحلة تحمل البرج عني،
وهاجسٌ أغنية تنقل الادوات البسيطة
حولي، لصنع تراجيديا مكررة، والخيال
هنا بائعٌ جائعٌ يتجول فوق الغبار أليفاً،
كأنني لا شأن لي بالذي سوف يحدث
لي في احتفالات يوليوس قيصر... عما قليل!

أنا والحبيبة نشرب
ماء المسرّة
من غيمةٍ واحدة
ونهبط في جرّةٍ واحدة!

رسوتُ بمينائها، لا لشيء سوى
أنّ أمي اضاعت مناديلها ههنا...
لا خرافة لي ههنا. أقابض
آهةً أو أفاوض آهة. لا خرافة

لي ههنا كي أُعبيّء ذاكرتي بالشعير
وأسماء حراسها الواقفين على كتفيّ
انتظاراً لفجر تُحتمس. لا سيف لي،
لا خرافة لي ههنا لأطلق أُمي التي
حملتني مناديلها، غيمةً غيمةً، فوق
ميناء عكا القديمة... عند الرحيل!

ستحدث أشياء أخرى،
سيكذبُ هنري على
قلاوون، بعد قليل
سيرتفع الغيم أحمر فوق صفوف النخيل...

أطوار أنات

الشعر سلمنا إلى قمرٍ تعلقه أنات على حديقتها
كمرأةٍ لعشاق بلا أمل
وتمضي في براري نفسها امرأتين لا تتصالحان:
هنالك امرأة تعيد الماء للينبوع
وامرأة تقود النار في الغابات
أما الخيل فلترقص طويلاً فوق هاويتين
لا موت هناك... ولا حياة.
وقصيدتي زبد اللهاث وصرخة الحيوان
عند صعوده العالي
وعند هبوطه العاري : أنات
أنا أريدكما معا
حبا وحربا يا أناتُ
فإلى جهنم بي .. احبك يا أناتُ

وأنت تقتل نفسها

في نفسها

ولنفسها

وتعيد تكوين المسافة كي تمر الكائنات

أمام صورتها البعيدة فوق أرض الرافدين

وفوق سوريا . وتأنم الجهات

بصولجان اللازورد وخاتم العذراء : لا

تتأخري في العالم السفلي .

عودي من هناك إلى الطبيعة والطبائع يا أنات!

جفت مياه البئر بعدك

جفت الأغوار والأنهار جفت بعد موتك . والدموع

تبخرت من جرة الفخار وانكسر الهواء من الجفاف

كقطعة الخشب

انكسرنا كالسياج على غيابك جفت الرغبات فينا

والصلاة تكلست .

لا شيء يحيا بعد موتك

والحياة تموت كالكمات بين مسافرين إلى الجحيم

فيا أنات

لا تمكثي في العالم السفلي أكثر!

ربما هبطت إلهات جديدات علينا من غيابك

وامتثلنا للسراب

وربما وجد الرعاة الماكرون آلهة قرب الهباء وصدقته الكائنات

فلترجعي , ولترجعي أرض الحقيقة والكناية

أرض كنعان البداية

أرض نهديك المشاع

وأرض فخذيك المشاع

لعي تعود المعجزات إلى أريحا ,

عند باب المعبد المهجور ... لا
موت هناك ولا حياة
فوضى على باب القيامة
لا غدٌ يأتي . ولا ماضٍ يجيء مودعا.

لا ذكريات
تطير من أنحاء بابل فوق نخلتنا , ولا
حلمٌ يسامرنا لنسكن نجمةً
هي زر ثوبك يا أنات
وأنا تخلق نفسها

من نفسها
ولنفسها
وتطير خلف مراكب الإغريق
في اسم آخر
إمرأتين لن تتصالحا أبدا
وأما الخيل

فلترقص طويلا فوق هاويتين . لا موت هناك ولا حياة
لا أنا أحيا هنالك ,
أو أموتُ
ولا أناتُ
ولا أنات.!

مصرع العنقاء

في الأناشيد التي ننشدها
ناي
وفي الناي الذي يسكننا
نار
وفي النار التي نوقدها
عنقاء خضراء
وفي مرثية العنقاء لم أعرف
رمادي من غبارك
غيمة من ليلك تكفي لتخفي
خيمة الصياد عنا . فأمش
فوق الماء كالسيد - قالت لي:
فلا صحراء للذكرى التي أحملها عنك
ولا أعداء منذ الآن للورد
الذي يبزرغ من أنقاض دارك.

كان ماءً يشبه الخاتم حول الجبل العالي
وكانت طبريا ساحة خلفية للجنة الأولى
وقلت : اكتملت

صورة العالم في عينين خضراوين
قالت : يا أميري وأسييري
ضع خمورك في جراك!
الغريبان اللذان احترقا فينا
هما
من أرادا قتلنا قبل قليل
وهما

من يعودان إلى سيفيهما بعد قليلٍ

وهما

من يقولان لنا : من أنتما ؟

-نحن ظلان لما كنا هنا

واسمان للقمح الذي ينبت في خبز المعارك

لا أريد العودة الآن , كما

عاد الصليبيون مني

فأنا كل هذا الصمت بين الجهتين : الآلهة

من جهة,

والذين ابتكروا أسماءهم من جهةٍ أخرى

أنا الظل الذي يمشي على الماء

أنا الشاهد والمشهد

والعابد والمعبد

في أرض حصاري وحصارك

كن حبيبي بين حربين على المرأة_ قالت_ لا أريد

العودة الآن إلى حصن أبي ...

خذني إلى كرمك

واجمعني إلى أمك

عطرني بماء الحبق

انثرني على أنية الفضة

مشطني , وأدخلني إلى سجن اسمك

اقتلني من الحب

تزوجني , وزوجني التقاليد الزراعية

دربني على الناي

واحرقني لكي أولد كالعنقاء من ناري ونارك.!

كان شيءٌ يشبه العنقاء
يبكي داميا
قبل أن يسقط في الماء
على مقربةٍ من خيمة الصياد
ما نفع انتظاري وانتظارك؟

(IV) غرفة للكلام مع النفس

تدابير شعرية

لم يكن للكواكب دورٌ،

سوى أنها

علمتني القراءة:

لي لغةٌ في السماء

وعلى الأرض لي لغة

من أنا؟ من أنا؟

لا أريد الجواب هنا

ربما وقعت نجمةً فوق صورتها

ربما ارتفعت غاية الكستنا

بيَ نحوَ المجرةِ، ليلاً،

وقالت: ستبقى هنا!

القصيدة فوق، وفي وسعها

أن تعلمني ما تشاء

كأن أفتح النافذة

وأدير تدابير المنزلية

بين الأساطير. في وسعها

أن تزوجني نفسها... زمناً

وأبي تحت، يحمل زيتونة

عمرها ألف عام،

فلا هي شرقية

ولا هي غربية.

ربما يستريح من الفاتحين،
ويحنو عليّ قليلاً،
ويجمع لي سوسنا

القصيدة تبعد عني،
وتدخي ميناء بحارة يعشقون النبيذ
ولا يرجعون إلى امرأة مرتين،
ولا يحملون حنيناً إلى أي شيء
ولا شجناً!

لم أمت بعد حباً
ولكنّ أماً ترى نظرات ابنها
في القرنفل تخشى على المزهريّة من جرحها،
ثم تبكي لتبعد حادثة
قبل أن تصل الحادثة
ثم تبكي لترجعني من طريق المصائد
حيّاً، لأحيا هنا

القصيدة ما بين بين، وفي وسعها
أن تضيء الليالي بنهدي فتاة،
وفي وسعها أن تضيء بتفاحة جسدين،
وفي وسعها أن تعيد،
بصرخة غاردينيا، وطناً!

القصيدة بين يديّ، وفي وسعها
أن تدير شؤون الأساطير،
بالعمل اليدوي، ولكنني
مذ وجدتُ القصيدة شرّدتُ نفسي

وسألتها:

من أنا

من أنا؟

من روميات أبي فراس الحمداني

صدى راجع . شارع واسع في الصدى

خطى تتبادل صوت السعال , وتدنو

من الباب , شيئاً فشيئاً

وتتأى عن الباب . ثمة أهل يزوروننا غدا

في خميس الزيارات . ثمة ظل لنا في الممر

وشمس لنا في سلال الفواكه.

ثمة أم تعاتبُ سجاننا:

لماذا أرققت على العشب قهوتنا يا شقي؟

وثمة ملح يهب من البحر

ثمة بحر يهب من الملح

وزنانتى اتسعت سننيمترا لصوت الحمامة :

طيري بروميتي واحملي لابن عمي سلامي!

صدى

للصدى . للصدى سلم معدني

شفافية , وندى يعج بمن يصعدون إلى فجرهم

وبمن ينزلون إلى قبرهم من ثقب المدى

خذوني إلى لغتي معكم !

قلت:

ما ينفع الناس يمكث في كلمات القصيد

وأما الطبول فتطفو على جلدائها زبدا

وزنانتى اتسعت

في الصدى

شرفةً كثوب الفتاة التي رافقتني سدى

إلى شرفات القطار

وقالت : أبي لا يحبك .

أمي تحبك

فاحذر سدومَ غدا ولا تنتظرني , صباح الخميس , أنا لا أحب الكثافة

حين تخبئ في سجنها حركات المعاني

وتتركني جسدا يتذكر غاباته وحده

للصدي غرفة كزنانتي هذه:

غرفة للكلام مع النفس

زنانتي صورتني لم أجد حولها أحدا

يشاركني قهوتي في الصباح

ولا مقعدا يشاركني عزلي في المساء

ولا مشهدا أشاركه حيرتي لبلوغ الهدى.

فلأكن ما تريد لي الخيل في الغزوات :

فإما أميرا

وإما أسيرا

وإما الردي

وزنزانتي اتسعت شارعاً شارعين .

وهذا الصدى صدى

بارحا سانحا

سوف أخرج من حائطي

كما يخرج الشبخ الحر من نفسه سيديا

وأمشي إلى حلب

يا حمامة طيري بروميتي

واحلمي لابن عمي سلام الندى.

من سماء إلى أختها

يعبر الحالمون

...وتركنا طفولتنا للفراشة، حين تركنا
على الدراجات قليلاً من الزيت، لكننا
نسينا تحية نعناعنا حولنا، ونسينا
السلام السريع على غدا بعدنا...
كان حبر الظهيرة أبيض، لولا
كتاب الفراشة من حولنا...

يا فراشة! يا أخت نفسك، كوني
كما شئت، قبل حنيني وبعد حنيني.
ولكن خذيني أماً لجناحك يبق جنوني
معي ساخناً! يا فراشة! يا أم
نفسك، لا تتركيني لما صمم الحرفيون
لي من صناديق... لا تتركيني!

من سماء إلى أختها يعبر الحالمون
حاملين مرايا من الماء حاشيةً للفراشة
في وسعنا أن نكون

من سماء
إلى أختها
يعبر الحالمون

الفراشة تنسج من إبرة الضوء
زينة ملهاتها
الفراشة تولد من ذاتها
والفراشة ترقص في نار مأساتها

نصف عنقاء. ما مسّها مسنا: شبة
داكنٌ بين ضوءٍ ونار... وبين طريقين
لا. ليش طيشاً ولا حكمةً حبنا
هكذا دائماً، هكذا... هكذا
من سماء
إلى أختها
يعبر الحالمون...

الفراشة ماءً يحنُّ إلى الطيران. ويُقلت
من عرق الفتيات، وينبت في غيمة
الذكريات. الفراشة ما لا تقول القصيدة،
من فرط خفتها تكسر الكلمات، كما
يكسر الحلم الحالمين...

وليكن..

وليكن غدنا حاضراً معنا
وليكن حاضراً أمسنا معنا
وليكن يومنا حاضراً
في وليمة هذا النهار المُعدّ
لعيد الفراشة، كي يعبر الحالمون
من سماءٍ إلى أختها... سالمين
من سماءٍ إلى أختها يعبر الحالمون...

قال المسافر للمسافر:

لن نعود كما...

لا أعرف الصحراء،
لكنني نَبْتُ على جوانبها كلاماً...
قال الكلام، كلامه، ومضيت
كامرأة مطلقة مضيت كزوجها المكسور،
لم أحفظ سوى الإيقاع
أسمعه
وأتبعه
وأرفعه يماما
في الطريق إلى السماء،
سماء أغنيتي،
أنا ابن الساحل السوري،
أسكنه رحيلاً أو مقاما
بين أهل البحر،
لكنّ السراب يشدني شرقاً
إلى البدو القدامى،
أردُّ الخيل الجميلة ماءها،
وأجسُّ نبض الأبدية في الصدى،
واعود نافذة على جهتين...
أنسى من أكون لكي أكون
جماعة في واحد، ومعاصراً
لمدائح البحارة الغرباء تحت نوافذي،
ورسالة المتحاربين إلى ذويهم:
لن نعود كما ذهبنا

لن نعود... ولو لمأما!

لا أعراف الصحرأء؁
مهما زرت هأجسها؁
وفي الصحرأء قال الغيب لي:
أكتب!

فقلت: على السراب كتابةً أخرى
فقال: أكتب ليخضرّ السراب
فقلت: ينقصني الغياب
وقلت: لم أتعلم الكلمات بعد
فقال لي: أكتب لتعرفها
وتعرف أين كنت؁ وأين أنت
وكيف جئت؁ ومن تكون غداً؁
ضع اسمك في يدي وأكتب
لتعرف من أنا؁ واذهب غمأما
في المدى...

فكتبت: من يكتب حكأيته يرث
أرض الكلام؁ ويملك المعنى تماماً!
لا أعراف الصحرأء؁
لكني أودعها: سلاماً
للقبيلة شرق أغنيتي: سلاماً
للسلألة في تعددها على سيف: سلاماً
لاين أمي تحت نخلته: سلاماً
للمعلقة التي حفظت كواكبنا: سلاماً
للسلام عليّ بين قصيدتين:
قصيدة كتبت

وأخرى مات شاعرها غراما!
أنا؟
أنا هنالك... أم هنا؟
في كل "أنت" أنا،
أنا أنت المخاطب، ليس منفي
أن أكونك .ليس منفي
أن تكون أناي أنت. وليس منفي
أن يكون البحر والصحراء
أغنية للمسافر:
لن أعود، كما ذهبتُ،
ولن أعود... ولو لماما!

قائمة من أجل الملاحظات

ما دلني أحدٌ عليّ . أنا الدليل , أنا الدليل
إليّ بين البحر والصحراء
من لغتي ولدتُ على طريق الهند بين قبيلتين صغيرتين
عليهما قمرُ الديانات القديمة
والسلام المستحيل
وعليهما أن تحفظا فلك الجوار الفارسي
وهاجس الروم الكبير
ليهبط الزمن الثقيل
عن خيمة العربي أكثر.
من أنا ؟
هذا سؤال الآخرين ولا جواب له

أنا لغتي أنا
وأنا معلقةٌ معلقتان

عشرٌ

هذه لغتي

أنا لغتي ، أنا ما قالت الكلماتُ :

كن جسدي ، فكنت لنبرها جسدا

أما ما قلت للكلمات :

كوني ملنقى جسدي مع الأبدية الصحراء

كوني كي أكون كما أقولُ

لا أرضَ فوق الأرض تحملني

فيحملني كلامي طائرا متفرعا مني

ويبني عشَّ رحلته أمامي

في حطامي

في حطام العالم السحري من حولي

على ريحٍ وقفت وطال بي الليل الطويل

هذه لغتي قلائد من نجومٍ حول أعناق الأحبّة:

هاجروا

أخذوا المكان وهاجروا

أخذوا الزمان وهاجروا

أخذوا روائحهم عن الفخار

والكلأ الشحيح وهاجروا

أخذوا الكلام وهاجر القلب القليل معهم

أيتسع الصدى ، هذا الصدى

هذا السراب الأبيض الصوتي لاسمٍ تملأ المجهول بُحْتَهُ

ويملاً الرحيل ألوهةً ؟

تضع السماء عليّ نافذةً فأنظرُ : لا

أرى أحدا سواي..

وجدت نفسي عند خارجها

كما كانت معي , ورؤاي
لا تتأى عن الصحراء
من ربحٍ ومن رملٍ خطاي
وعالمي جسدي وما ملكت يداي
أنا المسافر والسبيل
يطل آلهة عليّ ويذهبون
ولا نطيل حديثنا عما سيأتي .
لا غدّ في هذه الصحراء إلا ما رأينا أمس
فلأرفع معلقتي لينكسر الزمان الدائري
ويولد الوقت الجميل
ما أكثر الماضي يجيء غداً
تركتُ لنفسها نفسي التي امتلأت بحاضرها
وأفرغني الرحيل
من المعابد .
للسماء شعوبها وحروبها
أما أنا , فلي الغزاة زوجةً
ولي النخيل
معلقات في كتاب الرمل .
ماضٍ ما أرى للمرء مملكة الغبار وتاجه
فلتنتصر لغتي على الدهر العدو
على سلالاتي , عليّ على أبي , وعلى زوالٍ لا يزول
هذه لغتي ومعجزتي
عصا سحري .
حدائقُ بابلي ومسلتي
وهويتي الأولى
ومعدني الصقيل
ومقدّسُ العربي في الصحراء

يعبد ما يسيل من القوافي
كالنجوم على عباائه
ويعبد ما يقول
لا بدّ من نثرٍ إذا
لا بدّ من نثرٍ إلهيٍّ لينتصر الرسول...

الدوري، كما هو كما هو...

حيرة التقليد: هذا الغسق المهرق
يدعوني إلى خفته خلف زجاج
الضوء. لم أحلم كثيراً بك، يا
دوري. لم يحلم جناحٌ بجناحٍ...
وكلانا قلقٌ

لك ما ليس لي: الزرقةُ أُنثاك
ومأواك رجوع الريح للريح،
فحلّق! مثلما تعطش فيّ الروح
للروح، وصفق للنهارات التي ينسجها
ريشك، واهجرني إذا شئت
فبيتي، ككلامي ضيقٌ

يألف السقف، كضيفٍ مرح، يألف
حوض الحبق الجالس، كالجدة، في
نافذة... يعرف أين الماء والخبز،
وأين الشرك المنسوب للفأر...
ويهتزّ جناحاه كشال امرأة تفلت منا،

ويطير الأزرق...

نَزِقٌ مثلي هذا الإحتفال النَّزِقُ
يخمش القلب ويرميه على القش،
أما من رعدة تمكث في أنية
الفضة يوماً واحداً!
وبريدي فارغٌ من أيّ ملهاة،
ستأتي، أيها الدوري، مهما
ضاقَت الأرض وفاض الأفق

ما الذي يأخذه مني جناحك؟
توتر، وتبخرٌ كنهار طائش
لا بدّ من حبة قمح ليكون
الريش حرّاً. ما الذي تأخذه منك
مراياي؟ ولا بدّ لروحي من
سما، ليراها المطلق

أنت حرٌّ. وأنا حرٌّ. كلانا يعشق
الغائب. فلتهبط لكي أصعد. ولتصعد
لكي أهبط. يا دوري! هبني جرس
الضوء، أهبك المنزل المأهول بالوقت.
كلانا يكمل الآخر،
ما بين سما وسما،
عندما نفترق!

(V) مطر فوق برج الكنيسة

هيلين، يا له من مطر

إلتقيت بهيلين، يوم الثلاثاء
في الساعة الثالثة
ساعة الضجر اللانهائي،
لكن صوت المطر
مع أنثى كهيلين
ترنيمَةً للسفر

مطر،

يا له من حنينٍ... حنين السماء

إلى نفسها!

مطر،

يا له من أنينٍ... أنين الذئاب

على جنسها!

مطرٌ فوق سقف الجفاف،

الجفاف المذهَّب في أيقونات الكنائس،

-كم تبعد الأرض عني؟

وكم يبعد الحب عنك؟

يقول الغريب لبائعة الخبز، هيلين،

في شارع ضيقٍ مثل جوربها،

-ليس أكثر من لفظة... ومطر!

مطرٌ جائعٌ للشجر...

مطرٌ جائعٌ للحجر...

ويقول الغريب لبائعة الخبز:

هيلين هيلين! هل تصعد الآن

رائحة الخبز منك، إلى شرفة

في بلادٍ بعيدة...

لنتنسخ أقوال "هومير"؟

هل يصعد الماء إلى كتفك إلى

شجرٍ يابسٍ في قصيدة؟

تقول له: يا له من مطر

يا له من مطر!

ويقول الغريب لهيلين: ينقصني

نرجسٌ كي أهدق في الماء،

مائك، في جسدي. حدقي أنتِ

هيلين، في ماء أحلامنا... تجدي

الميتتين على ضفتك يغنون لاسمك:

هيلين... هيلين! لا تتركينا

وحيدين مثل القمر

يا له من مطر

يا له من مطر

ويقول الغريب لهيلين: كنتُ أحارب

في خندقك، ولم تبرئي من دمي

الأسوي. ولن تبرئي من دم

مُبهم في سرايين وردك. هيلين!
كم كان إغريق ذاك الزمان فُساءً،
وكم كان "أوليس" وحشاً يحبّ السفر
باحثاً عن خرافته في السفر!

الكلام الذي لم أقله لها
قلته. والكلام الذي قلته
لم أقله لهيلين. لكنّ هيلين
تعرف ما لا يقول الغريب...
وتعرف ماذا يقول الغريب لرائح
تتكسر تحت المطر،
فتقول له:

حرب طروادة لم تكن
لم تكن أبداً
أبداً...

يا له من مطر
يا له من مطر!

ليلٌ يفيض من الجسد

ياسمينٌ على ليل تموز، أغنيةٌ
لغربيين يلتقيان على شارع
لا يؤدي إلى هدف...
من أنا بعد عينين لوزيتين؟ يقول الغريب
من أنا بعد منفاك في؟ تقول الغريبة.

إذن، حسناً، فلنكن حذرين لنلا
نحرك ملح البحار القديمة في جسد يتذكر...
كانت تعيد له جسداً ساخناً،
ويعيد لها جسداً ساخناً.
هكذا يترك العاشقان الغريبان حبهما
فوضوياً، كما يتركان ثيابهما الداخلية
بين زهور الملاءات...
-إن كنت حقاً حبيبي، فألف
نشيد أناشيد لي، واحفر إسمي
على جذع رمانة في حدائق بابل...
-إن كنت حقاً تحبيني، فضعي
حلمي في يدي. وقولي له، لابن مريم،
كيف فعلت بنا ما فعلت بنفسك،
يا سيدي، هل لدينا من العدل ما سوف يكفي
ليجعلنا عادلين غداً!
-كيف أشفى من الياسمين غداً؟
-كيف أشفى من الياسمين غداً؟
يُعتمان معاً في ظلال تشعُّ على
سقف غرفته: لا تكن معتماً
بعد نهديّ - قالت له...
قال: نهذاك ليلٌ يُضيء الضروريّ
نهذاك ليلٌ يُقبِّلني، وامتأنا أنا
والمكان بليلٍ يفيض من الكأس...
تضحك من وصفه. ثم تضحك أكثر
حين تُخبىء منحدر الليل في يدها...
-يا حبيبي، لو كان لي

أن أكون صبياً... لكنك أنت
-ولو كان لي أن أكون فتاةً
لكنك أنت...!

وتبكي، كعادتها، عند عودتها
من سماء نبيذية اللون: خذني
إلى بلد ليس طائرٌ أزرقٌ
فوق صفصافه يا غريب!
وتبكي، لتقطع غاباتها في الرحيل
الطويل إلى ذاتها: من أنا؟
من أنا بعد منفاك في جسدي؟
آه مني، ومنك، ومن بلدي
-من أنا بعد عينين لوزيتين؟
أريني غدي...!

هكذا يترك العاشقان وداعهما
فوضوياً، كرائحة الياسمين على ليل تموز...
في كل تموز يحملني الياسمين إلى
شارع، لا يؤدي إلى هدف،
بيد أنني أتابع أغنيتي:

ياسمينٌ

على

ليل

تموز...

للغجرية، سماء مُدْرَبَة

تتركين الهواء مريضاً على شجر التوت،

أما أنا

فسأمشي إلى البحر كيف أنتفس

لماذا فعلت بنا ما فعلت... لماذا

مللت الإقامة، يا غجرية،

في حارة السوسنة؟

عندنا ما تريد من ذهب ودم

طائش في السلالات. دُقي بكعب حذائك

أيقونة الكون تهبط إليك الطيور. هناك

ملائكة... وسماء مُدْرَبَة، فاصنعي ما

تسائين! دُقي القلوب ككسارة الجوز

بيزرغ دم الأحصنة!

لا بلاد لشعرك. لا بيت للريح. لا

سقف لي في ثريات صدرك. من ليك

ضاحك حول ليك أسلك درب

الشعيرات وحدي. كأنك من صنع

نفسك، يا غجرية،

ماذا صنعت بصلصالنا منذ تلك السنة؟

ترتدين المكان كما ترتدين سراويل نارٍ

على عجل. لا وظيفة للأرض تحت يديك

سوى الالتفات إلى أدوات الرحيل: خلاخيل

للماء. جيتارة للهواء، وناي لتبتعد

الهند أكثر. يا عجزية لا تتركينا كما
يترك الجيش آثاره المحزنة!

عندما، في نواحي السنونو، هبطت علينا
فتحنا على الأبدية أبوابنا صاعرين. خيامك
جيتارة للصعاليك. نعلو ونرقص حتى مغيب
الغروب المدمى على قدميك. خيامك
جيتارة لخبول الغزاة القدامى تكرر
لتصنع أسطورة الأمكنة

كلما حرّكت وتراً مسّنا جنّها. وانتقلنا
إلى زمنٍ آخر. وكسرنا أباريقنا، واحداً
واحداً، لنصاحب إيقاعها. لم نكن طيّبين
ولا سيّئين، كما في الروايات. كانت
تُسَيِّرُ أقدارنا بأصابعها العشر،
دندنة... دندنة!

غيمةً، حملتها اليمامات من نومها
هل تعود غداً؟ لا. يقولون: لا
ترجع العجزية. لا تعبر العجزية في بلد
مرتّين. إلى جنسها؟ من يلمّع من
بعدها فضة الأمكنة؟

تمارين أولى
على جيتارة إسبانية

جيتارتان
تتبادلان مؤشحاً
وتقطعان
بحرير يأسهما
رُخامَ غيابنا
عن بابنا،
وترقصان السنديان
جيتارتان

أبديةً زرقاء تحملنا،
وتسقط غيمتان
في البحر قربك،
ثم تصعد موجتان
فوق السلام، تلحسان خطاك
فوق، وتضمرمان
ملح الشواطئ في دمي
وتهاجران
إلى غيوم الأرجوان!

جيتارتان

الماء يبكي، والحصي، والزعفران
والرياح تبكي:
"لم يعد غدنا لنا" ...

والظل بيكي خلف هستيريا حسان
مسّه وترّ، وضاق به المدى
بين المدى والهاوية،
فاختار قوس العنقوان

جيتارتان...

أغنيةً بيضاء للسمراء،
ينكسر الزمان
ليمرّ هودجها على جيشين:
مصريّ، وحتّيّ
ويرتفع الدخان
دخان زينتها الملون
فوق أنقاض المكان...

جيتارتان

لا شيء يأخذ منك أندلس الزمان
ولا سمرقند الزمان
إلا خطي النهوند:
تلك غزاةً سبقت جنازتها
وطارت في مهب الأفحوان
يا حبّ! يا مرضي المريض
كفي، كفي!
لا تنسَ قبرك مرّةً أخرى
على فرسي،

ستدبحنا هنا جيتارتان

جيتارتان...

جيتارتان...

أياه الحبّ السبعة

الثلاثاء: عنقاء

يكفي مرورك بالألفاظ كي تجد
العنقاء صورتها فينا، وكي تلد
الروح التي ولدت من روحه جسداً...
لا بدّ من جسدٍ للروح تحرقه
بنفسها ولها، لا بدّ من جسد
لتُظهر الروح ما أخفت من الأبد
فلنحترق، لا لشيء، بل لنتحد!

الأربعاء: نرجسة

خمسة وعشرون أنثى عمرها. ولدت
كما تريد... وتمشي حول صورتها
كأنها غيرها في الماء: ينقصني
ليل... لأركض في نفسي. وينقصني
حبُّ لأففز فوق البرج... وابتعدت
عن ظلها، ليمرّ البرق بينهما
كما يمرّ غريبٌ في قصيدته...

الخميس: تكوين

وجدتُ نفسي في نفسي وخارجها
وأنتِ بينهما المرأة بينهما...
تزورك الأرض أحياناً لزينتها
وللصعود إلى ما سبب الحُلماً.
أنا أنا، فبوسعي أن أكون كما
تركتني أمس، قرب الماء، منقسماً
إلى سماءٍ وأرضٍ. آه... أين هما؟

الجمعة: شتاء آخر

إذا ذهبت بعيداً، علقي حلمي
على الخزانة ذكرى منك، أو ذكرى
مني. سيأتي شتاء آخر، وأرى
حمامتين على الكرسي، ثم أرى
ماذا صنعت بجوز الهند: من لغتي
سال الحليب على سجادة أخرى
إذا ذهبت خذي فصل الشتاء، إذا!

السبت: زواج الحمام

أصغي إلى جسدي: للنحل آلهة
وللصهيل ربايات بلا عدد
أنا السحاب، وأنت الأرض، يُسندها
على السياج أنين الرغبة الأبدي
أصغي إلى جسدي: للموت فاكهة
وللحياة حياة لا تُجددها
إلا على جسدي... يصغي إلى جسدي

الأحد: مقامُ النهوند

يُحبّك، اقتربي كالخيمة... اقتربي
من الغريب على الشبّاك يجهش بي:
أحبّها. انحدري كالنجمة... انحدري
على المسافر كي يبقى على سفر:
أحبّك. انتشري كالعتمّة... انتشري
في وردة العاشق الحمراء، وارتيكي
كالخيمة، ارتيكي، في عزلة الملك...

الإثنين: موشح

أمرٌ باسمك، إذ أخلو إلى نفسي
كما يمرّ دمشقيٌّ بأندلس

هنا أضاء لك الليمون ملح دمي
وههنا، وقعت ریح عن الفرس

أمرٌ باسمك، لا جيشٌ يحاصرني
ولا بلادٌ. كأني آخرُ الحرس
أو شاعرٌ يتمشّي في هواجسه...

(VI) أغلقوا المشهد

شهادة من بروتولت بريخت

أمام محكمة عسكرية

(1967)

سيدي القاضي!
أنا لستُ بجندي،
فماذا تطلبون الآن مني؟
وأنا لا شأن لي في ما تقول المحكمة،
ذهب الماضي إلى الماضي سريعاً...
دون أن يسمع مني كلمة.
مضت الحرب إلى المقهى لترتاح...
وطيارُوك عادوا سالمين
والسماء انكسرت في لغتي، يا سيدي
القاضي — وهذا شأنِي الشخصي —
لكنّ رعاياك يجرون سمائي خلفهم... مبتهجين
ويُطلون على قلبي، ويرمون قشور الموز
في البئر. ويمضون أمامي مسرعين
ويقولون: مساء الخير، أحياناً،
ويأتون إلى باحة بيتي... هادئين
وينامون على غيمة نومي... آمنين
ويقولون كلامي نفسه،
بدلاً مني،
لشباكي، وللصيف الذي يعرق عطر الياسمين

ويعيدون منامي نفسه،
بدلاً مني،
ويبكون بعينيّ مزامير الحنين
ويغنّون، كما غنيتُ للزيتون والتين
وللجزئيّ والكليّ في المعنى الدفين
ويعيشون حياتي مثلما تعجبهم،
بدلاً مني،
ويمشون على إسمي حذرين
وأنا، يا سيدي القاضي هنا
في قاعة الماضي، سجين
مضت الحرب. وضباطك عادوا سالمين
والكروم انتشرت في لغتي، يا سيدي
القاضي – وهذا شأنِي الشخصيّ – إن
ضاققت بي الزنزانة امتدت بي الأرض،
ولكنّ رعاياك يجسّون كلامي غاضبين
ويصيحون بأخاب وإيزابيل: قوما، ورثا
بستان نابوت الثمين!
ويقولون: لنا الله
وأرض الله
لا للآخرين!
ما الذي تطلبه، يا سيدي القاضي،
من العابر بين العابرين؟
في بلادٍ يطلب الجلال فيها
من ضحاياها مديح الأوسمة!
آن لي أن أصرخ الآن
وأن أسقط عن صوتي قناع الكلمة:
هذه زنزانة، يا سيدي، لا محكمة

وأنا الشاهد والقاضي. وأنت الهيئة المتهمة
فاترك المقعد، واذهب: أنت حرُّ أنت حرُّ،
أيها القاضي السجين
إنّ طياريك عادوا سالمين
والسماء انكسرت في لغتي الأولى —
وهذا شأنِي الشخصيّ — كي يرجع
موتانا إلينا — سالمين!

خلافه خير لغوي ، مع امرئ القيس

أغلقوا المشهدَ
تاركين لنا فسحةً للرجوع إلى غيرنا
ناقصين . سعدنا على شاشة السينما
باسمين ، كما ينبغي أن نكون على شاشة السينما
وارتجلنا كلاماً أعدّ لنا سلفاً
أسفين على فرصة الشهداء الأخيرة.
ثم انحنينا نسلمّ أسماءنا للمشاة على الجانبين
وعدنا إلى غدنا ناقصين...

أغلقوا المشهد
انتصروا
عبروا أمسنا كله
غفروا
للضحية أخطاءها عندما اعتذرت
عن كلامٍ سيخطر في بالها

غيروا جرس الوقت
وانتصروا

عندما أوصولنا إلى الفصل قبل الأخير
التفتنا إلى الخلف : كان الدخانُ يطل من الوقت أبيضَ
فوق الحدائق من بعدنا
والطواويس تنشر مروحة اللون حول رسالة قيصر للتائبين
عن المفردات التي اهترأت.
مثلا: وصفُ حريةٍ لم تجد خبزها.
وصف خبزٍ بلا ملح حريةٍ
أو مديحُ حمامٍ يطير بعيدا عن السوق..
كانت رسالة قيصر شمبانيا للدخان
الذي يتصاعد من شرفة الوقت
أبيض...

أغلقوا المشهد
انتصروا

صوروا ما يريدونه من سماواتنا
نجمةً نجمةً
صوِّروا ما يريدونه من نهاراتنا
غيمةً غيمةً,

غيروا جرس الوقت
وانتصروا.

التفتنا إلى دورنا في الشريط الملون
لكننا لم نجد نجمة للشمال ولا خيمةً للجنوب
ولم نتعرف على صوتنا أبدا.
لم يكن دمنا يتكلم في الميكروفونات في
ذلك اليوم , يومَ اتكأنا على لغةٍ بعثرت قلبها

عندما غيّرت دربها.
لم يقل أحدٌ لامرئ القيس :
ماذا صنعت بنا وبنفسك ؟
فاذهب على درب قيصر ،
خلف دخانٍ يطل من فوهة الوقت أسود .
واذهب على درب قيصر
وحدك ، وحدك ، وحدك
واترك لنا ، ههنا ، لغتك .

مُتتاليات لزمن آخر

كان يوماً مسرعاً . أنصتُ للماء
الذي يأخذه الماضي ويمضي مسرعاً ،
تحت ،
أرى نفسي تتشقُّ إلى اثنين :
أنا ،
واسمي ...

لكي أحلم لا يلزمني شيءٌ : قليلٌ
من سماء لزياراتي سيكفي لأرى
الوقت خفيفاً وأليفاً
حول أبراج الحمام

وقليلٌ من كلام الله للأشجار
يكفييني لكي أبني بالألفاظ
مأوى آمناً

للركاكيّ التي أخطأها الصياد...

كم كان على ذاكرتي أن تحفظ
الأسماء. كم أخطأتُ في تهجئة
الأفعال. لكن هذه النجمة من
صنع يدي فوق الرخام...

كان يوماً مسرعاً. لم يعتذر
أحدٌ من أحدٍ فيه. ولم يسقط
على الشارع غيمُ الشجر العالي
ولم يلمع دمٌ فوق الكلام

كلُّ شيءٍ هادئٌ في ملتقى البحرين
لا تاريخ للأيام منذ اليوم،
لا موتى ولا أحياء. لا هدنة،
لا حرب علينا أو سلام

وحياتي في مكانٍ آخر. ليس مهماً
وصف مقهى وحوارٍ بين شباكين
مهجورين. أو وصف خريفٍ يمضغ
العلكة في هذا الزحام

...ولكي أحلم لا يلزمني بيتٌ
كبير. فقليلٌ من نعاس الذئب
في الغابة يكفي لأرى، فوق،
سماً لزياراتي...

حياتي في مكانٍ آخر. ليس مهماً
أن تراها بنت جنكيزخان في سروالها

أو يراها قارىءٌ تدخل في المعنى
كما يدخل حبرٌ في الظلام

كان يوماً مسرعاً. والغد ماضٍ
قادمٌ من حفلة الشاي. غداً كنا!
وكان الامبراطور لطيفاً معنا. كنا
غداً... نشهد تدشين الركاب...

كلُّ شيء هادىءٌ. ليس مهماً
وصف حدادين لم يُصغوا إلى
التانجو، ولا موتي ينامون، كما
ناموا ولم يعتذروا للسيد التاريخ...

كي أحلم، لا يلزمني ليلٌ كهذا...
وقليلٌ من سماء لزياراتي، سيكفيني
لأرى الوقت خفيفاً،
وأليفاً،
وأنام...

عندما يبتعد

للعدو الذي يشرب الشاي في كوخنا
فرس في الدخان. وبنّت لها
حاجبان كثيفان. عينان بنيتان. وشعرٌ
طويلٌ كليل الأغاني على الكتفين. وصورتها
لا تفارقه كلما جاءنا يطلب الشاي. لكنه
لا يحدثنا عن مشاغلها في المساء، وعن
فرس تركته الأغاني على قمة النلّ...

...في كوخنا يستريح العدو من البندقية،
يتركها فوق كرسيّ جدي. ويأكل من خبزنا
مثلما يفعل الضيف. يغفو قليلاً على
مقعد الخيزران. ويحنو على فرو
قطتنا. ويقول لنا دائماً:
لا تلوموا الضحية!
نسأله: من هي؟
فيقول: دمّ لا يجفّفه الليل...

...تلمع أزرار سترته عندما يبتعد
عمّ مساءً! وسلّم على بئرنّا
وعلى جهة التين. وامش الهوينى على
ظلنا في حقول الشعير. وسلّم على سرونّا
في الأعالي. ولا تنسَ بوابة البيت مفتوحة
في الليالي. ولا تنسَ خوف

الحصان من الطائرات،
وسلم علينا، هناك، إذا اتسع الوقت...

هذا الكلام الذي كان في ودنا
أن نقول على الباب... يسمعه جيداً
جيداً، ويخبئه في السعال السريع
ويلقي به جانباً.

فلماذا يزور الضحية كل مساء؟
ويحفظ أمثالنا مثلنا،
ويعيد أناشيدنا ذاتها،
عن مواعيدنا ذاتها في المكان المقدس؟

لولا المسدس لاختلط الناي في الناي...
...لن تنتهي الحرب ما دامت الأرض

فين تدور على نفسها!
فلنكن طيبين. ويقراً شعراً
لطيّار "بيتس": أنا لا أحب الذين
أدافع عنهم، كما أنني لا أعادي
الذين احاربهم...

ثم يخرج من كوخنا الخشبي،
ويمشي ثمانين متراً إلى
بيتنا الحجريّ هناك على طرف السهل...

سلم على بيتنا يا غريب.

فناجين

قهوتنا لا تزال على حالها. هل تشمّ
أصابعنا فوقها؟ هل تقول لبيتك ذات

الجديلة والحاجبين الكثيفين إن لها
صاحباً غائباً،

يتمنى زيارتها، لشيء...
ولكن ليدخل مرآتها ويرى سره:
كيف كانت تتابع من بعده عمره
بدلاً منه؟ سلم عليها
إذا اتسع الوقت...

هذا الكلام الذي كان في ودنا
أن نقول له، كان يسمعه جيداً
جيداً،
ويخبئه في سعالٍ سريع،
ويلقى به جانباً، ثم تلمع
أزرار سترته عندما يبتعد...



ملتقى الصداقة الثقافي
مكتبة الصداقة الإلكترونية

<http://www.alsdaq.com/vb>

<http://www.alsdaq.com/vb/forumdisplay.php?f=94>